**المحاضرة الرابعة: إشكالية توظيف المنهج في النقد الأدبي**

**مقياس مناهج النقد الأدبي:**

**السنة الأولى ماستر: تخصص النقد الحديث والمعاصر**

**إشكالية توظيف المنهج في النقد الأدبي:**

**أهمية المنهج في الممارسة النقدية:**

للمنهج أهمية قصوى في أي ممارسة نقدية جادة فهو" مفتاح التحكم في كل بحث، ونجوع كل دراسة" فهو الأداة المساعدة على استنطاق القضايا وتوليد الأفكار" ومعلم هم يحتكم إليه في التفريق بين الخطأ والصواب لأنه" قواعد مؤكدة وضابطة، إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة، كان في مأمن من أن يحسب صوابا ما هو خطأ" كما قال ديكارت. ويؤكد ياسبرز على النقطة ذاتها إذ يقول:" إن قدرتنا على الإبداع، تكمن في قدرتنا على إعادة توليد الأفكار التي تلقيناها عبر التاريخ، وبدون المناهج الصالحة تبقى المعطيات خرساء نستنطقها فلا تجيب".

**صعوبات تطبيق المنهج النقدي:**

**- صعوبات تتعلق بالطبيعة الخاصة للمناهج:** يجب أن تخضع المناهج-باعتبارها أدوات إجرائية- دوما وأبدا إلى الفحص والتطوير المستمريين بغية تحسين مردوديتها، ومواكبة التطورات الحاصلة في المجالات المعرفية الموظفة لخدمتها.

**- صعوبات تتعلق بالممارسة النقدية ذاتها:** وهي تعرف حاليا –في كثير من الأحيان- تعاملا غير سليم ولا واع مع المناهج قديمها وحديثها مما انعكست آثاره على الخطاب النقدي العربي عامة وما عمق ذلك غربة المناهج عن الساحة النقدية العربية منشأ وتطورا وهو ما جعل الظاهرة النقدية مجرد تقليد سيء يقول عنه أحد الملاحظين للظاهرة:" إن ما يقال عن مقلديهم من العرب يكاد أن يفرغ محاولاتهم من كل إيجاب، إذ تتضخم المآخذ لاسيما المعطيات ..[التي]ٍ تكاد تكون غير ذات صلة ببيئة الأدب العربي في بعدها الاجتماعي والنفسي الاقتصادي دون أن نتحدث عن طبيعة اللغة.

- الانفتاح اللامشروط الذي عرفته الساحة الثقافية العربية على التيارات والمذاهب الفكرية المختلفة دون نقد أو مراعاة لاختلاف الظروف التاريخية والمعرفية رغبة في مسايرة الركب الحضاري وقصور المحاولات الجادة لتوطين هذه المناهج وأقلمتها أو استنباط مناهجنا الخاصة.

**الشروط الموضوعية للتعامل السليم مع المناهج النقدية:**

**1/ضرورة فهم المنهج في شموليته:** لتفادي سطحية الفهم والتعامل فالمنهج ليس مجرد أدوات إجرائية لكنها أيضا نتيجة خلفية إبستيمولوجية(معرفية) وفلسفية تؤطرها. فاختيار المنهج ليس مسألة تفضيل خطوات على أخرى لأن " كل مصطلح أو منهج إلا ويحمل في أحشائه، حتما خلفية فكرية، تختصر نفسها ورؤيتها وتحليلها، من خلال المصطلح النقدي، والمنهج الذي يلائمه ويستعمل في إطاره، ويتبادل الخدمة معه" ومنه يجب أن يكون اختيار الوجه الظاهر لمنهج معين لختيارا مقصودا ومرهون بتصور نظري، ضمني سابق، يحدده ويوجهه. فإذا أخذنا نموذج التصور الثلاثي للمناهج(داخلية، خارجية، توفيقية) أو (نسقية، سياقية، هجينة) نجد المكونات الظاهرة لكبل منهج تتماشى مع نوعية الرؤية الخفية المؤطرة له بحيث يتعذر الجمع بين المكونات الظاهرة لمنهج ما والرؤية اللامرئية لمنهج آخر...لما يمكن أن يعتري ذلك من تلفيق وتشويه النسجام بين القسم الظاهر والخفي من المنهج. ومنه يجب أن نوقن أن المنهج" منظومة متكاملة، تبدأ بالوعي والرؤيا المشكلين لروح المنهج وكنهه اللامرئي، وتنتهي بالعناصر اللازمة لتحقيق تلك الرؤيا، وذلك الوعي، من خلال الكشف والفحص، والدرس، والتحليل، والبرهنة، للإثبات أو النفي".

**2/الكفاية الإجرائية للمنهج:** قيمة المنهج متعلقة بالطاقة الإجرائية التي يختزنها وهو ما يمكن تلمسه من خلال التطبيق الذي يعد الفيصل في ذلك، " إن قيمة أي منهج ليست كامنة في نوع الأدوات التي يستعملها الباحث...لكن قيمة أي منهج رهينة بما يحققه في نطاق رؤيته وهدفه" ورغم" تعدد المناهج، وبأننا نقبل بعضها وقد نرفض البعض الآخر، لكننا حين نفعل ذلك لا ينبغي أن نراعي منطلقاتها الفلسفية فقط، وإنما علينا أن نراعي مدى صلاحيتها وطواعيتها لموضوع الدرس".

إن الحكم على كفاية المنهج ليس وقفا على تماسه النظري وحده، بقدر ما هو مرتبط أساسا، بقدرته الإجرائية مما لا يمكن تلمسه إلا من خلال التطبيق، وفي ارتباط بموضوع معين، وظرف تاريخي محدد. ويجب التأكيد أنه لا يوجد منج صالح دائما وفي كل زمان ومكان فكفاية المنهج قضية نسبية لأنه ينبغي مراعاة مدى توافقه مع موضوع الدراسة والهدف منها فطبيعة الموضوع هي التي تحدد المنهج وليس العكس. والغاية هي القضية الأدبية وليس البرهنة على كفاية منهج ما كما فعل فرويد وماركس مع بعض الأعمال الأدبية.

**3/المنهج والخصوصية الحضارية العربية:**

الحقل النقدي المعاصر منقسم على نفسه إلى فريقين: فريق يتبنى المناهج الغربية بكل ما لها من حمولة حضارية وفكرية، وآخر يوظف مناهج عربية أصيلة تعود إلى الحركة النقدية العربية أيام ازدهارها مع الجرجاني والجاحظ وقدامة ابن جعفر وغيرهم.

وهذا الانقسام الذي يطبع خطابنا النقدي المعاصر هو وجه من أوجه الأزمة الحضارية العامة التي يواجهها العرب اليوم ذلك" أن إشكالية المنهج، من قبل ومن بعد، جزء من إشكالية كبرى، ما نفتأ نعاني من ثقلها ودوارها على أكثر من صعيد، تلك هي إشكالية البحث عن الذات في مهب الأهواء والأنوء، لنبوئها مكانا لائقا تحت الشمس، ذلك بالتحديد هو قدرنا وإشكالنا المنهجي الأكبر". لذلك ينبغي إيجاد موقع وسط بين الانفتاح اللامشروط حد الاستلاب والانغلاق المكرس للتخلف مع مراعاة خصوصية المرحلة التاريخية ومواءمتها للمنهج المختار تطبيقه.

إن المنهج باعتباره وليد ظروف تاريخية وحضارية، ليس صالحا لكل زمان ومكان بشكل مطلق، فهو يكتسي طابع النسبية الإجرائية المرتبطة بظروف نشأته، لذلك على الباحث تحريره من ارتباطه السابق وأقلمته مع السياق الجديد لكن دون المساس بجوهر المنهج وثوابته، وأن يقتصر فقط على عناصره المتغيرة.